قانون البلاغة

- ٨ -

واعلم ان اكثر مايرد اللطيف من المعاني في خمسة أجناس من الشعر وهي : مثل سائر ، وتشبيه نادر ، واستعارة واقعة ، ومبالغة ، وان يقصد الشاعر الى معنى مألوف فيزيد فيه زيادة تؤكده او تتممه ، فيصير الى اللطافة والحسن . وهذا الجنس الخامس تكثر أنواعه جداً ، ويحتاج الى ادنى تأمل حتى يعرف اذا ورد ويرد جميعه الى هذا الأصل . فمن الأمثال قول امرئ القيس :

(من ذكر سلمى وابن سلمى وخير ما رمت ما ينال)

وقول النابغة :

(حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب)

وأشرف من هذا لفظاً ، وابرع معنى ، ما اشتمل البيت على معنيين ومثلين كقول النابغة :

(ولست مستبق اخاً لا تلمه على شعث اي الرجال المهذب)

فجاء بمثلين . وكقول عبيد بن الأبرص :

« الخير ابقي وان طال الزمان به » فهذا مثل قائم بنفسه ثم قال :

« والشر أخبث ما أوعيت من زاد » فأتى بمثل ثان وكقول طرفة :

(ستبدي لك الايام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود)

فجاء بمثلين وقال الحطيئة : « من يفعل الخير لا يعدم جوازيه »

فهذا مثل بارع . وقوله : « لا يذهب العرف بين الله والناس » مثل سائر .

ونحوه قول القطامي : « والناس من يلق خيراً قائلون له = مايشتهي » فهذا كلام كامل ثم قال : « ولأم المخطئ الهبل » فأتى بمثل آخر في بعض مصراع . ومما فيه ثلاثة أمثال قول بشار : « اليوم خمر » فهذا مثل « ويبدو في غد خبر » مثل ثان . « والدهر ما بين إنعام وإيئاس » مثل ثالث .

واما التشبيه فنحو قول امرئ القيس :

(كأن قلوب الطير رطباً و يابساً لدى وكرها العناب والحشف[1] البالي)

وقول عنترة :

(هزجاً يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجذم)

وقول طرفة :

(يشق حباب الماء حيزومها به كما قسم الترب المفايل باليد)

وقول كعب بن زهير :

(وليلة مشتاق كأن نجومها تعرضن منها في طيالسة خضر)

وقول حميد بن ثور يصف فرخ الحمامة :

(كأن على أشداقه نور حنوة[2] اذا هو مد الجيد منهما[3] ليطعما)

وقول عدي بن الرقاع :

(يتعاوران من الغبار ملاءة سوداء محدثة هما نسجاها)

(تطوى اذا علوا مكاناً ناشزاً واذا السنابك أسهلت نشراها)

وقول آخر يصف عناقيد العنب :

(يحملن اوعية المدام كأنما يحملنها باكارع النغران[4])

وقول اوس بن حجر يصف الهلال :

(كأن ابن ليلتها جانحاً فسيط[5] لدى الافق من خنصر)

وقول ذي الرمة يصف الثريا :

(وردت اعتسافاً والثريا كأنها على قمة الرأس ابن ماء محلق)

وقول عبد الله بن الزبير الأسدي :

(وقد خزم الفور الثريا كأنها به راية بيضاء تخفق للطعن)

وأجد الناس يقدمون قول الفرزدق :

---

(١) الردي من التمر . (٢) الحنوة نبت طيب الريح . (٣) لعل الصواب منه .

(٤) النغران بكسر النون جمع النغر وهو طائر كالعصفور احمر المنقار وقيل هو البلبل .

(٥) الفسيط قلامة الظفر .

(والشيب ينهض في الشباب كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار)

وهذا من الكلام الذي سبق معناه لفظه ، ولهذا لا يعرّج احد على تأمل الفاظه ونظمه ، فيستبين عوارُه ، وترتيبه عندي غيرمستقيم ، وتشبيهه مستحيل ، لانه وصف الشيب فذكر انه يبدو في الشباب ، ثم ترك ماابتدأ به ، ووصف الشباب وشبهه بالليل ولم يجيء بالكلام على التقسيم المستوي ، ولم يضع التشبيه في ظاهر اللفظ موضعه ، وكان الذي تقتضيه المقابلة الصحيحة ، وتوجبه على مابنى عليه بيته لو ساعده الوزن ، ان يقول والشيب ينهض في الشباب كما ينهض نهار في جانبي ليل ، لان النهار هو الذي يشبه السواد ، ولكنه لما لم يطرد له الوزن ترك ذكر ما ابتدأ به ، وعلق الكلام بالشباب ، واخرج التشبيه منكوساً .

واما الاستعارة والمبالغة فقد تقدم الكلام فيهما وفي ايراد مثليهما .

واما المعنى الذي تلحقه زيادةٌ تؤكده فنحو قول امرئ القيس :

(اذا ركبوا الخيل واستلأموا تحرّقت الارض واليوم قرّ)

فقوله (واليوم قرّ) زيادة تمّ بها المعنى وكمل ونحو قوله :

(وجيدٍ كجيد الريم ليس بفاحش)

فقوله (كجيد الريم) اراد طوله كما جرت عادات العرب في ان يشبهوا جيد المرأة اذا كان طويلاً بجيد الظبي ، فلما قال (ليس بفاحش) نفى عن جيدها ان يكون دقيقاً فيه انحناء لان فحش جيد الظبي انما هو لذلك ومثله قول طرفة :

(فسقى ديارك غير مفسدها)

لما (١) كمل المعنى ولعيب عليه كما عيب على ذي الرمة قوله :

(الا فاسلمي يا دار ميّ على البلى ولا زال منهلاً بجرعائك القطر)

فقيل له اذا لم يزل القطر منهلاً عليها عفّى آثارها ، ودرس معالمها ، وهذا العيب عندي غير لاحق به ، لانه تكلم على عادة الشعراء في سقيا ديار احبابهم ، وقد ابتدأ

(١) الارجح ان هذه الجملة جواب لجملة محذوفة سهواً ولعل التقدير (فلو لم يقل غير مفسدها لما كمل المعنى الخ .

بان دعا لها بالسلامة على البلى ، واذا سلمت على البلى سلمت على انهلال القطر . ومن سبيل الشاعر ان يجتنب في شعره استعمال مذهب واحد من مذاهب الصناعة ، وان يتحرى ان كان يذهب اليها الاخذ من أطراف ابوابها والاسهام [1] لقصيدته في كل نوع من انواعها حتى لا يتخلص للتجنيس وحده ، ولا التطبيق وحده ، ولا لضرب من ضروب الصنعة ، منفرداً من دون غيره ، فانه اذا تحرى ذلك عذبت الفاظه وأسمحت [2] ابياته . وتسهلت حزون الشعر عليه ، وسالت احرار المعاني اليه ومتى افردها بنوع من انواعها ندت عن الأسماع فمجتها وثقلت على السن الرواة فلم تروها .

قد ذكرت من وجوه الصنعة وضروبها ماذكرت واقول الآن : ان المختار من الشعر هو القريب البعيد ، الوحشي المستأنس ، الدمث الوعث ، البدوي الحضري ، المجيب المتأبي ، الممتنع المتأتي ، على ان مذاهب العلماء في اختيار الشعر متباينة ، وآراءهم فيه متفاوتة ، واهواءهم مختلفة ، فمنهم من لا يميل الا الى ماسهل وانقاد ، وذل على اللسان ، ودل عند استماعه على المراد ، ومنهم من يميل الى ماانغلق معناه ، وخفي غرض قائله فيه ومغزاه ، وصعب استخراجه وتعذر ، فلم ينقد الا بعد طول فكر ، ونظر ، وهم اصحاب المعاني . ويذهب قوم الى ان احسن الشعر ما كان مطابقاً للصدق وموافقاً للوصف ، وما كان بالحق اشبه ، والى الصواب اقرب ، ويروون :

(وان احسن بيت انت قائله بيت يقال اذا انشدته صدقا)

ويختار قوم ضد هذا المذهب ويذهبون الى ان الغلو في قول الشعر اصوب ، وان الإبلاغ فيه اوجب ، والإفراط فيه احسن . حتى قال بعضهم : ان احسن الشعر اكذبه . وهذا مذهب اكثر المحدثين من عهد بشار ومن بعده .

وفصل القول ان الإغراق في وصف ما يوجد شيء منه مستحسن ، فلهذا قيل احسن الشعر اكذبه اما اذا لم يوجد منه شيء اصلاً كوصف الزنجي بنقاء اللون وزهرته ومدح الرجل الأمي بجودة الخط وسرعته فيه ، فلا يكون الا ذماً فكيف يحمد .

---

(١) الاسهام مصدر اسهم لفلان كذا جعل له سهماً فيه . (٢) (اسمحت) اي لانت بعد استصعاب .

وذهب اكثر شعراء المحدثين الى ان احسن الشعر ما كان اكثر صنعة ، وان يتوخى من البلوغ في تجويده النهاية المطلوبة ، وقالوا لما كانت حدود الشعر اربعة : وهي اللفظ والمعنى والوزن والتقفية وجب ان يكسى احسن الالفاظ ، و يبرز في احسن المعارض ، وان يتخير لها احسن المعاني ، وان يكون سهل العروض رشيق الوزن ، متخير القافية ، رائع الابتداء بديع الخروج ، وما تعدى هذا النعت وخلا منه سمي الشعر المرسل والوسط والسليم .

ويميل قوم من اهل اللغة والغريب الى الرصين من الشعر ، والذي يجمع الغريب من المعاني . وهذا مذهب خلف الاحمر وابي عمرو والاصمعي . ومنهم من يذهب الى الوحشي من الشعر ، والى ما لم يتداول . ويقال ان المنصور امر بتتبع هذا الفن منه فجمع له المفضل اختياره . ومنهم من يفضل الشعر بقائله ، فيختار أشعار الفرسان والسادات والاشراف ، ورؤساء الحروب ، ومن ذلك قول الصلتان العبدي :

(و يرفع من شعر الفرزدق انه له باذخ لذوي الخسيسة رافع)
(جرير اشد الشاعرين شكيمة ولكن عليه الباذخات الفوارع)

وحدث علي بن العباس النوبختي قال رآني البحتري يوماً ومعي دفتر فقال : ماهذا قلت : شعر الشنفرى قال : والى اين تمضي فقلت : الى ابي العباس ثعلب اقرأه عليه فقال : قد رأيت اباعباسكم هذا منذ ايام عند ابن ثوابة ، فما رأيته ناقداً للشعر ولا مميزاً للالفاظ ، ورأيته يستجيد وينشد شيئاً وما هو بافضل الشعر فقلت له : اما نقده وتمييزه فهذه صناعة أخرى ، ولكنه اعرف الناس باعراب الشعر وغريبه فما كان ينشد قال قول الحارث بن وعلة :

(قومي هم قتلوا أميم اخي فاذا رميت يصيبني سهمي)
(فلان عفوت لأعفون جللا ولئن سطوت لأوهنن عظمي)

فقلت والله ما أنشد الا أحسن شعر في أحسن معنى ولفظ فقال : فأين الشعر الذي فيه عروق الذهب قلت : مثل ما ذا ؟ قال مثل قول ابي ذؤاب بن ربيعة الاسدي :

(ان يقتلوك فقد هتكت بيوتهم[1] بعتيبة بن الحارث بن شهاب)
(بأشدهم كلبًا على اعدائه وأعزّهم فقداً على الأصحاب)

قال فاذا هو لا يعجبه من الشعر الا ما وافق طبعه معناه ولفظه ٠

والشعر ايدكم الله علم من علوم العرب ، يشترك فيه الطبع والرواية ، والذكاء والفطنة ، ثم تكون الدربة عادة وقوة لكل واحد من اسبابه ، فمتى اجتمعت للشاعر هذه الخصال فهو المحسن المبرّز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الاحسان ، ولست أفضّل في هذه القضية بين القديم والمحدث ، والجاهلي والمخضرم ، والاعرابي والمولد ، الا اني ارى حاجة المحدث الى الرواية اشد ، واجده الى كثرة الحفظ افقر ، لان المطبوع الذكي لا يمكنه تناول الفاظ العرب الا رواية ، ولا طريق الى الرواية الا السمع ، وملاك السمع الحفظ ٠ ويجب للشاعر اذا اراد نظم قصيدة ان يمخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثراً ، ويعد له ما يكسوه من الألفاظ التي تجانسه ، والقوافي التي توافقه ، والوزن الذي يسلس القول عليه ، فاذا اتفق له بيت يشاكل الغرض الذي رماه اثبته ، وشغل القوافي بما تقتضيه من المعاني على غير ترتيب الشعر ، بل يعلق ما يتفق له نظمه ، وان لم يكن مناسباً لما قبله ٠ واذا تكاملت له المعاني وكثرت الابيات ، تكون سلكاً لها ، ورباطاً لما تشتت منها ٠ ثم يتأمل ما قد سمح به طبعه ، ونتجته فكرته ، فيبالغ في انتقاده ، ويبدل اللفظ المستكره باللفظ السهل ، وان شغل قافية في معنىً ما ، ثم اتفق له معنى يضاد الاول ، وكانت في المعنى الثاني اوقع منها في الاول ، عدل الى ما هو احسن ، وابطل البيت او نقض بعضه وطلب لمعناه قافية تشاكله ، واذا أسس شعره على الكلام البدوي الفصيح لم يخلط فيه الالفاظ الوحشية النافرة ٠

ولست آمره باجراء الشعر كله مجرىً واحداً ، بل ارى ان يقسم الالفاظ على رتب المعاني فلا يكون غزله كافتخاره ، ولا مديحه كوعيده ، ولا هجاؤه كاستبطائه ، ولا تعريضه كتصريحه ، بل يوفي كلاًّ حقه ، ويعطيه حظه ، فيتلطف اذا تغزّل ،

---

(١) وفي نسخة ثللت عروشهم ٠

وبفخم اذا افتخر . نعم و يجب ان يخاطب الملوك بما يستحقونه من جليل المخاطبات، ويتوقى حطّها عن مراتبها ، لايخلطها بالعامة ، ويصل كلامه على تصرفه في فنونه صلةً لطيفة فيتخلص من الغزل الى المديح ، ومن المديح الى الشكوى ، ومن الشكوى الى الاستماحة ومن وصف الديار والآثار الى وصف الفيافي والنوق ، ومن الرعود والبروق ، الى وصف الرياض والروّاد ، ومن وصف الظلمان[1] والاعيار ، الى وصف الخيل والأسلحة ، ومن وصف المفاوز والفيافي ، الى وصف الطَّرَد[2] والصيد ، ومن وصف الليل والنجوم ، الى وصف المياه والموارد ، والآل والهواجر ، والحرابي[3] والجنادب .

وللمعاني الفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء التي يزداد الحسن[4] في بعض المعارض دون بعض ، فكم من معنىً حسن قد شين بمعرضه الذي ابرز فيه ، وكم من معرض حسن قد ابتذل في معنىً قبيح ألبسه ، والمحنة على شعراء زماننا اشدّ منها على من كان قبلهم ، لانهم قد سبقوا الى كل معنىً بديع ، ولفظ فصيح ، وحيلة لطيفة ، وخلابة ساحرة ، فان اتوا بما يقصر عن معاني من تقدم لم يُتلق بالقبول وكان كالمُطَّرح المملول .

و ينبغي للشاعر في عصرنا ان لا يظهر شعره الا بعد ثقته بجودته ورشاقته وسلامته من العيوب التي نبه عليها ، ونهي عن استعمال نظائرها ، فليس يقتدى بالمسيء ، وانما الاقتداء بالمحسن .

وللشعر دواعٍ تحثّ البطيء وتبعث المتكاف ، منها الطمع ، ومنها الشوق ، ومنها الطرب ، ومنها الغضب . وقال احمد بن يوسف لابي يعقوب الخزيمي : مدائحك لمحمد

(١) الظلمان جمع ظليم وهو ذكر النعام والاعيار جمع عير وهو حمار الوحش .
(٢) الطرَدُ بفتح الراء مصدر طرِد الصياد اي زاول الصيد يقال خرج يطرد حُمُر الوحش اي يصيدها . (٣) الحرابي جمع حرباء والجنادب جمع جندب وهو ذكر الجراد . (٤) لعل الصواب حسنا والمعارض جمع معرض بالكسر وهو ثوب تجلى فيه الجارية ليلة العرس او هو القميص الذي يعرض فيه العبد والجارية للبيع ومنه قولهم (الألفاظ معاريض المعاني) .

ابن منصور أشعر من مراثيك وأجود · فقال : كنا يومئذ نعمل على الرجاء ، ونحن اليوم نعمل على الوفاء ، وبينهما بون بعيد ·

و يقال انه لم يستدع شارد الشعر بمثل الماء الجاري ، والشرف العالي ، والمكان الحالي او الخالي · وقال عبد الملك لأرطاة بن سهية : هل تقول الآن شعراً فقال : ما أشرب ولا أطرب ، ولا اغضب ولا ارغب ، وانما يكون الشعر بواحدة من هذه · وقيل للشنفرى حين أسنّ أنشد : فقال : الانشاد على حين المسرة ·

هذا والشعراء في الطبع مختلفون ، فمنهم من يسهل عليه المديح و يعسر عليه الهجاء ، ومنهم من يتيسر عليه المراثي و يتعذر عليه الغزل · وكان الفرزدق زير نساء وكان مع ذلك لايجيد النسيب ، وكان جرير عفيفاً وكان مع ذلك احسن الناس نسيباً · وكان الفرزدق يقول : ما احوجه عفته الى صلابة شعري ، وما احوجني الى رقة شعره كما ترون ·

والشعر كالبحر قد يغاص فيه على الدرر الثمينة النفيسة ، و يغاص فيه على الخرزات الخسيسة ، ولذلك قال بعض من قدمنا ذكره في شعر ذي الرمة انه نقط عروس ، وبعر ظباء ، ايذاناً بانه لا يستمر بديعه ، ولا تطرد نكته ، ولو كان الشعر كله مستمر النظام ، متساوي الاقسام ، لظهر الفضل ، وعرف العجز ، وسكت اهل النقص ، ولكن الفاضل ينظم الكلام الشريف ، ثم يقرن به ما يستحيي من مثله ، فيتدثر الناقص انه يجوز له ان يقول ، لانه يساويه في رديئه ان قصّر عنه في جيده · ثم تجيء نقاد السوء فيدسون المتوسط مع المبرّز ، والسكيت مع المتوسط ، فتشتبه الحال على من لم يكن مثرياً في بضاعته ·

واعلم ان ملاك الامر ترك التكلف ، واطّراح التعمّل ، والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه والعنف به ولست اعني بهذا كل طبع ، بل المهذّب الذي قد صقله الادب ، وشحذته الرواية ، وجلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الرديء والجيّد ، وتصور امثلة الحسن والقبيح ، والنقد والعيار غامضان وهما صناعة برأسها ، وهي غير العلم بغريب الشعر ولغاته ، ومعانيه واعرابه ، وقوافيه وأوزانه ، وهي ممتنعة الا على اهلها الذين صحت طباعهم ، وصفت قرائحهم ، وانقدت أذهانهم ، وأفنوا أعمارهم في خدمتها ،

وفرغوا أنفسهم لتحصيلها ، فحصلت لهم الرواية والدراية ، وراضوا الكلام ومارسوا قول الشعر ، وخدموا علمه ، ولزموا اهله ، ودفعوا الى مضايقه وكشفوا عن حقائقه [1] ، ولاقوا فيه [2] فرسانه وامراءه ، وميّلوا حروف الألفاظ ، وقابلوا صنوف المعاني .

وهذه الرسالة تقتضي الاقناع ، ولا تحتمل الاشباع ، وانما نبذت اليك نبذاً ، وعرضت عليك لمّاً ، حتى لا تحكم من غير تثبت ولا تقضي من غير تبين ، ولست اقول النبذ واللمّ تصغيراً لها ، بل تنبيهاً على قلة لفظها ، فاما المعنى المراد فاني اظن انها بلغته في صنعة الشعر ، اذا استكشفها رائد هذا الملم وطالبه ، فوصل بمطالعها نظره ، واستخدم فيها فكره . وردت به على قليب سهل المشرع ، عذب المكرع ، وكانت له مادة يستمدها . واما مايحتذى سبيله ، فان ايده الطبع ، ونصره الخاطر ، وأسعدته الهمة ، تقدم أضرابه بحول الله وقوته ، وفضله ورأفته . وهو حسبنا ونعم الوكيل . وصلواته على سيدنا محمد وآله اجمعين .

« انتهى قانون البلاغة »

وقد جاء في آخر الاصل ما نصه :

تم على أنامل أضعف عباد الله تعالى وأحوجهم الى النعيم عبد الله بن فضل الله ابن ابي نعيم . اصلح الله شأنه . في الأوائل من شوال سنة اربع وستمائة بمقام يوازاغج .



(١) وفي هامش النسخة الاصلية زيادة قوله وانا اقول : وتسلقوا على شواهقه .

(٢) وفي هامش الاصل ايضاً ما نصه : وانا اقول لاقوا فيه معانيه الساحرة لا قوافيه الظاهرة ونظروا طائله لا قائله واقتدوا بأساليب بيانه ولم يقتدوا بقواليب عيانه حتى يكون فارس مضماره في اظهار مطلبه واضماره .